

لا تستطيع السحب مهما تراكمت أن تحجب أشعة الشمس ودفعها طويلاً عن الدنيا . وهكذا المواهب الأصيلة تستمر في العطاء، وتفرض نفسها على الحياة بقوة واستحقاق واقتدار، و"مها بنت محمد بن فيصل بن عبد العزيز آل سعود موهبة أصيلة ومقدرة على العطاء فلو كانت موهبتها مجرد مغامرة أدبية لأميرة مثقفة لكانت مثل شهب السماء يظهر لمعانها مرة ثم تحترق وتختفي، ولو كانت موهبتها مجرد ظهور مفاجئ في الحياة الأدبية بكفاءة غير أصيلة لما تكرر نتاجها، ولو كانت موهبة ضعيفة لصمتت بعد صدور عملها الأدبي الأول، ولو كانت ترغب فقط أن تضيف مجداً إلى مجد لأصحابها الإحباط، وكفت عن الكتابة بسبب عدم احتفاء الأوساط الأدبية والثقافية السعودية بروايتها الأولى لعدة أشهر بعد صدورها . والحقيقة في رأيي أن تأخير الاعتراف والترحيب بموهبتها يعود لسببين: أولهما يعود للكاتبه نفسها، إذ لم ترد أن تستعين بنسبها لخدمة موهبتها، كاتبه وروائية، وقصصية، صدرت لها عدة أعمال أدبية باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وعدة قصص للأطفال وثلاثة روايات لذلك النوع من الشخصيات الثقافية خشية تلك المظنة إلا بعد إلحاح من بعض المحيطين بها الذين أدركوا أصالة موهبتها وحققها في الظهور. أما السبب الآخر فيعود لبعض الكتاب الذين تأخروا في الكتابة عنها حتى لا يظن بهم أن ما كتبه مجاملة للأميرة أكثر منه إنصافاً للمبدعة. ولكن ما أن كادت تصدر روايتها الثانية حتى توالى المقالات والدراسات والندوات عن روايتها الأولى في الأوساط الثقافية السعودية معترفة لها عن استحقاق وبلا مجاملة بالإبداع والموهبة الأصيلة. وقد صدرت لـ "مها محمد الفيصل روايتان حتى الآن وهما (توبة وسلي) و سفينة وأميرة الظلال والرواية الثالثة تحت الطبع والرواية الرابعة قيد الإبداع كما أصدرت عشر مجموعات من قصص الأطفال باللغتين العربية والإنجليزية. والأميرة الأدبية متعددة المواهب الفنية فهي تتولى بنفسها المراجعة والإشراف الفني على الرسوم والتصميم والإخراج لقصص الأطفال التي تكتبها، فهي ترى أن الشكل الفني للكتاب الذي يحمل القصة جزء لا يتجزأ من مؤثرات الرسالة التي تريد إيصالها للطفل ذهنياً وذوقياً . ورغم أن الكاتبة تجيد اللغتين الفرنسية والإنجليزية ولها باع في أدب هاتين اللغتين إلا أنها أثرت في إبداعها أن تبحر بسفينتها إلى الداخل. إلى عمق تراثها العربي وأن يعيش أبطالها في ظلال الإسلام. وهذا ليس بعجيب على كاتبة تلتزم بإداعاتها الرؤية الإسلامية المستنيرة للإنسان والحياة والكون في كل شيء في أدبها ، وقد انعكست هذه الرؤية بوضوح على روايتها الأولى (توبة وسلي) الصادرة في طبعتها الأولى سنة ٢٠٠٣ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت. نسيج الحدث والشكل الحكائي : إذا كانت السريالية في الأدب الغربي تعتمد على الحلم في تصوير الأعمال الفنية محررة الكلمات من البنية الشكلية للقوالب التقليدية دون وضع اعتبار لوضوح المضمون أو هدف الرسالة التي يريد الفنان التعبير عنها، فإن مها بنت محمد بن فيصل بن عبد العزيز آل سعود في روايتها الأولى (توبة وسلي) لم تلتزم بالبناء الفني التقليدي للرواية الذي أخذناه من الأدب الغربي، وإنما صنعت لنفسها شكلاً عربياً في الفن الحكائي . لم تضع أيضاً شكلاً فنياً لروايتها ولم تحده بحدود وإنما تركته أبواباً مفتوحة بلا نهايات، وحكايات متداخلة في بعضها البعض بلا بدايات وأسلوب في البناء أشبه بشكل الحلم الذي لا تقوم أحداثه على روابط منطقية بقدر ما يكون التفسير الذي تدل عليه هذه الأحداث في الحلم منطقياً . وإذا كان هناك من شبه بين حكايات هذا العمل الفني وحكايات ألف ليلة وليلة فإنه لا يكون إلا من حيث التعدد، فحكايات ألف ليلة وليلة بسيطة التركيب سهلة التتبع لا تحمل رموزاً ولا تحتل تفسيراً أكثر مما تقوله الحكاية نفسها، فما أن تبدأ حكاية حتى تولد داخلها حكاية أخرى تقود إلى حكاية ثالثة ثم نعود بعد تجوال طويل إلى استكمال الحكاية الأكبر. ومع ذلك فهذه الحكايات جميعاً لا تبدو منفصلة أو مستقلة بل يربطها جميعاً شخصية الراوي الأساسي فارس بن محمد آل رخوان الذي تبدأ معه الحكايات وتستمر طوال ترحاله حتى النهاية، وبهذا يكون شخصه السلسلة التي تنتظم عليها كل حكايات الشخصيات التي يلتقيها وتصل في مجموعها إلى حوالي خمسة وعشرين حكاية. ولا شك أن إدارة نسيج هذه الحكايات فنياً وإعادة ربطها بعضها ببعض قد استغرقت من المؤلف جهداً، وتوافرت في معظمها عناصر تشويق تستكمل الحكايات المتداخلة وتجعلنا بانتظار الوصول إلى نهاياتها . ومثانة النسيج الحكائي لا تعتمد على شخص فارس وإنما أيضاً تعتمد على الصلات التي تربط بين الحكايات بحيث لا تكون كل حكاية مستقلة بذاتها عن الأخرى، ونستطيع أن نقول إن الروابط في هذا النسيج الحكائي ثلاثة أنواع أولاً : روابط تقوم على أساس الشخصية فمثلاً شخصية راح المرأة التي أحبها فارس تشكل قاسماً مشتركاً لحكائيتين لأنها هي نفسها – كما نكتشف لاحقاً – زوجة الملك سلوان. ثانياً : روابط تقوم على أساس الفكرة للعبارة فهناك صلة بين حكاية الملك الذي أحب نفسه فكان رمز الأنانية والفتاة الحقود التي ألبست ثوباً من الشوك بدلاً من ثوب الورد وما نتعلمه بمعرفة حكايتها . ثالثاً : روابط تقوم على أساس الشخصية والفكرة معاً في معظم الحكايات كما سنرى. وهكذا بنيت الرواية على مجموعة حكايات متداخلة تذكر القارئ بصياغة فنية مختلفة عن حكايات ألف ليلة وليلة وتفتتح مقدمتها : "بسم الله الرحمن الرحيم وتنهيها بقولها : كتبتها الراجية رحمة ربها ، مها أذهب الله عنها الغفلة والأسى وليس

لفصول رواية توبة وسلي عناوين أو أرقام، وعدتها أحد عشر فصلاً. وهنا يلزمنا إيضاح ثلاثة عناصر أساسية تخص جميع الحكايات التي سيتعرض لها فارس خلال تجواله حتى النهاية أولاً : أن الورد يشكل العمود الفقري في الحكايات ويرمز في معظم الأحوال لعالم الطهر والنقاء والجمال الذي يتوق إليه معظم الأبطال. ثانياً : تكثر العبارات الحكيمية التي تستخلص العبرة مما يحدث للشخصيات كما تصادفنا أثناء السياق أطروحات فلسفية لقضايا تشغل الإنسان مثل الحب. الموت. الإيمان. الحرية وغيرها . ثالثاً : ج شأ جميع الطروحات الفكرية والفلسفية والحكيمية تنطلق من التصور الكثير من تصرفاتها وردود أفعالها ، والأحاديث النبوية نصاً أو معنى وللألفاظ ذات الدلالة والإيحاء ولقصص القرآن وقبل البدء في الترحال مع أبطال الحكايات يلزمنا التعرف علي الفكر الذي تصدر عنه الشخصيات والبيئة التي تعيش فيها، ولأن البيئة التي تدور فيها أحداث حكايات شخصيات هذا العمل الفني بيئة إسلامية صرفة نجد أبطالها يرتادون المساجد ويتلون القرآن ويعتبرون بما فيه، فكان طبيعياً أن يحتوى السرد الحكائي سواء بقلم الكاتبة أو على السنة الشخصيات تضمينات لألفاظ القرآن وقصص آدم وحواء ويوسف وإخوته وأصحاب الأخدود ووصف الجنة وذكر يوم القيامة، وباستثناء الرمز والإيحاء وسرد الحكايات على لسان الورد فإن الشخصيات معظمها واقعية الحدث أو واقعية الدلالة وذلك من خلال اهتمام المؤلفة بتصوير الضعف البشري عند أبطالها، رغم أنهم متدينون زاهدون في الدنيا، متجهون إلى الله. وقد أنقذ هذا التصوير الواقعي للشخصيات ولل فكرة الإسلامية ذاتها عملها من الوقوع في براثن الأساليب التعليمية المباشرة والتقريرية التي يقع فيها بعض الكتاب الذين يتعاملون مع الدين وتصوير الشخصيات المتدينة فيتحولون إلى خطباء لا أدباء وبالتالي يصبح أبطالهم ملائكة لا بشراً، وليس هذا من الإسلام الذي تنطلق منها الفيلسوف من تصوره للإنسان والحياة والكون في تصويرها لشخصياتها، فالإسلام يعترف بالضعف البشري بل بأسبقية الهوى على التقوى المتمثل في قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها (1)﴾، وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون (صحيح الجامع) . ورب العالمين الذي يؤمن به المسلمون غفور رحيم سبقت رحمته غضبه . ولهذا لا عجب إذن أن نرى أبطالها الفيلسوف جميعاً متدينون بل زهاداً وأتقياء ولكنهم بشر لا ملائكة . بشر يصيبون ويخطئون ويدعون بالحسنة السيئة. يجتهدون في فعل الخير وتجنب السوء لأن جوانحهم نفوس ألهمها الله فجورها قبل تقواها لذلك نراهم يمضون حياتهم في مجاهدة هذه النفوس بمحاولة السمو والزهد مؤمنين بأن لهم رباً يغفر الذنب ويقبل التوب ويعفو عن كثير . البحث عن العصمة البطل الأول من حيث الظهور في هذه الرواية هو فارس بن محمد آل رخوان العمود الفقري لجميع الحكايات لا نتعرف على اسمه إلا في صفحة (١٢) عندما استدعى مجرى الأحداث سؤاله عن اسمه، وبهذا الأسلوب نتعرف على أسماء الشخصيات من خلال سياق الأحداث. تبدأ الرواية منذ صفحتها الأولى بداية قوية مؤثرة جمعت في إهابها كل عناصر التشويق الفني والتأثير الوجداني. تبدأ بلطم هو أقوى تأثيراً من الحقيقة، ولا بد من الوقوف عند البداية لأن هذه البداية يُبنى عليها كل ما سيحدث من بعد فنياً وفكرياً . يبدأ فارس آل رخوان حكايته بقوله: «أبصرت طريقاً ثم أضعته، فكأنما شيء من خيال جال في خاطري فطاف بي لأتبعه، بيد أن الحقيقة تنأى وأنا سائر جواب أحلام. وإذا بي أصل إلى رجل ساجد في خشوع تام. ثم اعتدل من سجوده جالساً، فبدا لي وكأنه قد ملأ الأفق لدى استوائه؟؟ وصفرت الفلاة من حولنا على سعتها، ثم سلم الرجل وحيث همس بالسلام عليكم تحركت الرمال عسفاً، يمينا ثم يساراً، وما أن هاجت الأرض السلامه حتى سكنت. وكأن شيئاً لم يحركها جلال الخوف قلبي لما رأيت من أمره، فلزمت مكاني، التفت نحوي ثم قال: قم معي لنصل على الميت . وينظر فارس فلا يرى أحداً ، فإذا بالرجل يشير إلى نعش كان أمامه، قد لف صاحبه بقماش أخضر اللون طُرزَ بآيات من كتاب الله، وقام فارس يصلي معه على الميت وما كاد يحرك رأسه بالسلام يمينا حتى غاب النعش من أمامه، فلما سأل الرجل قال له: "ما لك تسأل عن مصير النعوش، أو شكاً في وجهتها ؟ ثم قال له : "صار إلى هذا . ثم أخذ تراباً وقال لفارس : اتحسب أنك في حلم؟ هذه الحقيقة ورماء بقبضة التراب وهو يضحك فلما فرغ فارس قال له: "أما يكون الأجدى أن يروعك طول اجتراحك السيئات وأفاق فارس من نومه وهو يردد طول اجتراح السيئات. طول اجتراحي السيئات يحمل هذا المشهد كل مقومات الحلم من الناحية الشكلية في تركيبه ولكنه استطاع التعبير بعمق عن حقائق طالما حاول الإنسان تجاهلها إذ يزرع فينا الحقيقة عدة تساؤلات تدعونا لتتبع الأحداث : من هو الحي؟ ومن هو الميت ؟ ألا يمكن أن يكون تذكير بحقيقة أن الأحياء إذا ماتوا انتبهوا ، وذلك استنتاجاً من قول فارس " وحسبني الميت من شدة ما بي من خوف وهنا نتساءل أيضاً ولمن النعش ؟ وما الذي يرمز إليه ؟ ولماذا اختفى وما العلاقة بين قبضة التراب والصحو وتذكر اجتراح السيئات؟ ٢١ صدق الرجل الذي قال لفارس اتحسب أنك في حلم ؟. هذه الحقيقة". فالموت هو الحقيقة الوحيدة التي يحاول أن يهرب منها الإنسان لأنه يخاف مواجهتها . يروعه ذكرها دون أن يدري لماذا ، لا بد للرجل أن يكشف لفارس القناع حين يقول له إن الأجدى به

أن يخاف طول اجتراحه السيئات. وهنا يصحو فارس صحوه حقيقية مدركاً الصلة بين الموت وطول اجتراح السيئات. يتحرك ضمير المسلم ووجدان المؤمن تلقائياً في شخص فارس إذ تستدعي عبارة إجتراح السيئات إلى الذاكرة قوله تعالى أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (1)، ومن الواضح أن الروائية تطرح لنا من خلال هذا المشهد - بكل دلالات الغموض والرموز المحتشدة فيه - مسألة غاية الوجود الإنساني في عقيدة المسلم، فالمسلم بفطرته وإيمانه يخشى أن يموت مجترحاً للسيئات ويعمل على أن يلقي ربه متطهراً من ذنوبه قدر المستطاع، فإذا فعل ذلك فلن يكون هناك ثمة خوف من الموت في نفسه لهذا فالأولى بالإنسان أن ينشغل بذنوبه بدلاً من تتبع عيوب الآخرين. أما قبضة التراب التي طارت في الهواء فهي مصير الوجود المادي لكل إنسان حيث ينتهي إلى قبضة تراب. وهذه الفكرة تؤكد بقية قصة فارس الذي عزم على مراقبة نفسه ليعرف كيف طال اجتراحه السيئات، وكان ذلك اليوم يوم عرسه، وعندما تحدث إلى زوجته عرف أنها "حمقاء فأخذ على نفسه عهداً أن يصبر عليها، عل ذلك يشفع له عند ربه بعد طول اجتراحه السيئات: "لعلكم حسبتم أن الجلوس إلى الحمقى شيء محتمل، أقول لكم إن جلوس أصحاب الأخدود على النار قد يقصر على حين تطول الحياة على بليد (١) ، وأنجبت له الزوجة الحمقاء أربعة أبناء في مثل حمقها، وورثت عن أبيها حظيرة أبقار، وعن أمها ذهباً كثيراً، وعندما رأى هذا اللحم نهض ينفذ التراب عن زوجته وهي في سبات عميق ويتخذ فارس قراره حين يقول : "قبلت أبنائي الأربعة دون أن ينتبهوا إلى سقوط عبرات الحزن على وجناتهم الوافرة، أو يحركوا ساكناً ، ثم ذهبت إلى غير عودة إن شاء الله (٢). أمور حياته فلا العرس ولا المال ولا البنون تشغله عما هو فيه، الحشر كلاً لما يَفُضُّ ما أَمْرُهُ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبِينَا الْمَاءَ صَبَا نُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . تلك هي قيامة فارس قد قامت وهذا ما فعله حين فر من كل من حوله، ولكن إلى أين؟! جاب الآفاق وترحل في أراض كثيرة وصادف أناساً أكثر، فهل نجا منها؟ وهل حقق "العصمة" التي يريد؟ وهل زهد في كل الدنيا؟ فهل استفاد بعد كل ما عرف عن حياتهم؟ وهل عمل بالنصح الذي أسدوه إليه وتجنب ما كان يعرف سلفاً عواقبه؟ من الواضح أن مها الفيصل تريد أن ترمز بشخص فارس للإنسان المسلم الذي يعمل جاهداً على تغليب تقواه على نزعات الهوى في نفسه . ترك فارس وطنه وأهله صادقاً في تجنب الفتن والزلل، وبالفعل تجاوز كل ما تعرض له من فتن الدنيا إلا فتنة واحدة!! بدأ فارس ترحاله، ركب سفينة دوله عليها تسمى العطاء للقبطان مراد، وهي مركب صغير بداله كأن البحر قد لفظه لثلاثة هيئته وخرجت من إحدى الغرف فتاة حسناء هي سليّ جارية القبطان، وعندما دخل فارس غرفتها دهش: "دخلنا إلى غرفة لم أر في حياتي لها مثيلاً، واسعة قد ملئت بشموع عطرة، غطت جدرانها أحسن الأقمشة وأبهجها، وفرشت بسجاد بديع ووسائد وافرة، كان بها صحاف رصت فيها فواكه وأطايب متنوعة، فكأنما النعيم قد كسا المكان بكل ما لديه وزيادة (1) . وعندما جالت عيناه في أرجاء الغرفة رأى عن يمينه قفصاً كبيراً مليئاً بالطيور الجميلة متعددة الألوان والأحجام كلها صامتة، وعن شماله نولاً لحياكة السجاد صنع من ذهب رصع به الجوهر وعلى السجادة التي لم تتم شاهد رجالاً ونساء يرتدون ثياباً فاخرة، ويتجولون في قصور بديعة (٢) ويعرف فارس من مراد أن تلك صنعة سليّ، ويلاحظ علامات الحزن والأسى على وجوه أصحاب تلك الصور، فيقول له مراد ما هو أكثر غرابية إن هؤلاء سجناء " قد سجنتهم سليّ في نسجها (٣) ويعجب فارس حين يرى صورته بدأت تظهر في النسيج لكنها لم تكتمل. رأى فارس زينة الحياة الدنيا في محتويات غرفة سلي وأقدار الناس في نسيجها، والحياة هي غرفة سليّ البديعة التي امتلأت بكل ما يبهر ويُبهر وبكل ما لذ وطاب لهذا ظهر الناس لفارس سجناء في هذا النسيج. ولعل الكاتبة تريد أن تقول هكذا الناس في الحياة، فهم إما سجناء ما حصلوا عليه منها أو سجناء ما يأملون في الحصول عليه، وفي كلا الحالتين هم عبيد لها يلهثون خلفها بين خائف حريص وطامع متأمل. يرتدون ثياباً فاخرة ويتجولون في قصور بديعة ولكن على وجوههم علامات الحزن والأسى وهذا ما جعل فارس يتساءل: " أو يُحبس الأحياء في نسيج من زينة ١٢ (١) . وهنا نعثر على الفكرة الخاصة التي ترمي إليها المؤلفة من خلال تصوير هذا المشهد بكل ما رآه فارس في غرفة سلي وعلى سجاداتها في إطار الآية القرآنية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢). فما هو هذا الكتاب وما القمص التي يحتويها وما حكاية سارة والسجادة والورد؟ يتحرك ظلال (٢). ولا عجب أيضاً أن تصف مها الفيصل الطفولة البريئة بالورد ذات يوم في هذا الدار طفلة . في الشرق أساطير تروى منها : أنه عندما تولد فتاة في الأرض، تزهو وردة في الجنان. أزهرت في الأرض سارة . (٤). ثم تصف لنا المؤلفة هذه الملاحظة في سياق تأليف العلاقة بين سارة والسجادة فتقول: "مضت أيام، بل ولت أشهر وسارة تكبر في هناء وجمال، كان أحب شيء إلى نفسها هو أن تحبو حتى تصل إلى الغرفة التي فيها السجادة فلعل أمها تفقدها فتجدها دوماً في المكان نفسه، مستأنسة بالصور والألوان التي كانت تهتز على سطحها كإيقاعات خافتة، أحياناً تضع أذنًا على نسجها كأنها أخذت تنصت إلى همهمات، مضت السنون، ثم

تمتزج الحقيقة بالخيال والواقع بالحلم حين تقدم لنا المؤلفة تصورها لظروف ظهور الحكايات التي ستحكيها الوردة لسارة ذات مساء وهي تروح وتجيء في أروقة بيتها، وهي تخرج من بين خيوط النسج كما ينبت الزرع من بين حبات الأديم، أشرق جمال الوردة عند تمام نمائها كالشمس، فمالت تيتها، ونشرت عطراً أحاط البيت سحراً (٢). استغرقت القصص التي قرأها فارس في كتاب سلي الأحمر الصفحات من ٣٢ - ٧٧ من الرواية أي حوالي ٤٥ صفحة، تبدأ الحكايات بحكاية الملك الذي أحب نفسه وانشغل بجمع الورد ونثره في أنحاء البلاد حتى انعدم الورد في مملكته، ولما وقع في الغرام فعلا لم يجد وردة يهديها إلى حبيبته ربحانة نخلص إلى هذه الحكمة: كمال الورد يكون على قدر صفاء قلب طالبه (٣) ، ثم تتداخل معها الحكاية الثانية حكاية الفتاة صاحبة ثوب الشوك التي صنعت ثوباً معطراً من ألف وردة تامة الحسن فتحول إلى ثوب من الشوك فتكون النتيجة: "إن الوردة التي لم تزهر في القلوب أولاً لا بد أن تتقلب إلى أشواك (٤) . وتتضمن حكاية نوران والراعي، الخطوط الأساسية للحدث في قصة يوسف عليه السلام وإخوته فنوران فتاة تحب راعياً حياً عُذرياً، وذات يوم أرادت أن تبعث بقارورة ملؤها رحيق الورد الخالص إلى حبيبها، فأخبرت صديقتها الحاسدة إخوة نوران، فكانوا كإخوة يوسف فأخذوا الراعي وألقوه في غياهب الجب بئر قديم فحزنت عليه نوران حزناً عظيماً كحزن يعقوب عليه السلام على يوسف حتى ابيضت عيناها من الحزن ثم يفرج الله عنها وحيث سارا تحدث الناس عن فتاة تترك خلفها حيث تخطو درباً من وكل هذه عناصر تبهر الأطفال أمثال سارة وتشد الكبار أمثالنا . وحكاية نوران والراعي طويلة، تخللتها عدة حكايات مليئة بالحكم والعبر مثل حكايات سيدة الظلال) و(سيدة الأصوات) و (الرجل الذي أحب الصمت) و (القرود الذي يطحن الجواهر) و (صاحب الموازين). وبنهاية حكاية الفتاة والراعي يستيقظ مراد فيتوقف فارس آل رخوان عن القراءة في الكتاب الأحمر، كتاب سُلِّي ويضعه في رداءه على أمل أن يستكمل قراءته، ولكن قراصنة يهاجمون السفينة ويخلعون عنه رداءه ويفقد الكتاب فيغادر السفينة في رحلة طويلة. ويستغرق الثلث الأخير من رحلة فارس بحثاً عن العصمة وزهداً في الدنيا وهروباً من الفتن والافتقار من الله، أربع حكايات مليئة بالأحداث والعبر يوضع فيها فارس تحت المحك، ويعيش تجربة النفس الإنسانية ذات النوايا الحسنة في عمل الخير، والاجتهاد في تجنب الشر، ويتعرف على السيدة صاحبة القصر فتكشف ذلك السر بسرد مأساة حياتها ، وتبدأ بذلك الحدث دورة جديدة من الحكايات المتصلة والمتداخلة، يجد فارس رجلاً عجوزاً على الشاطئ أخذ البحر ولده "لأنه لم يفصح عن السر للسيدة (١). يعرف فارس فيما بعد أن هذا الرجل يدعى سعد الماضي فلما التقاه مرة ثانية تبعه حتى اختفى في قصر منيف يطل على البحر. ويلتقي بسيدة القصر فيروي لها قصته وقصة الكتاب وحكاياته، وعن سعد الماضي تقول: "يا فارس إن سعد الماضي يخرج في كل يوم ويبقى منتظراً يرقب البحر، فلعل الزمان يرجع ولده، سعد لم يكن له ولد، إن قلت له يا سعد ليس لك ولد، قال: كان لا بد أن يكون لي ولد، لكن أخذه البحر (٢). كان سعد يحسب أن السر لم تعرفه السيدة ويظن أنه لو أخبرها به لكان اختلف الحال" ثم تقول السيدة لفارس: سعد الماضي هو الذي رأيت، وأسكنه عندي، كان قائماً ، على خيل زوجي، وقد أحبني منذ أن كان فتى لا يفصح لأحد عن عشقه حتى أخذت الأيام عقله من طول الكتمان وجن